الشيخ المكاشفي السوداني: أعماله وإسهامه في الإصلاح

Sheikh al-Makāshifī of Sudan: His Works and Contribution to Reform

سعد الدين منصور محمد *

Abstract

This article attempts to shed some lights on the life and works of the prominent Sudanese Sufi Sheikh al-Makāshifī. Its focus is to highlight his contribution to the socio-cultural (material and spiritual) wellbeing of his people through the different activities which he undertook during his life as master of the mystical order he established in one of Sudan's large rural areas. The article therefore provides a brief biographical account of Sheikh al-Makāshifī as a prelude to analyzing different aspects of his literary, educational and social work emanating from the mosque as the radiating and illuminating centre to embrace the interests and concerns of society.

Key terms: Islam, Sudan Sufism, reform.

مستخلص البحث

يحاول هذا المقال أن يلقي بعض الأضواء على حياة أحد أبرز شيوخ التصوف في السودان وأعماله، مركزًا على إبراز إسهامه في الإصلاح الثقافي والاجتماعي (المادي والروحي) لمجتمعه من خلال ضروب النشاط المختلفة التي قام بها بوصفه شيخًا للطريقة الصوفية التي أسسها في إحدى أوسع المناطق الريفية في السودان. ولذلك بدأ المقال بتقديم عرض تعريفيٍّ بالشيخ، تمهيدًا لتحليل المظاهر المختلفة لأعماله الأدبية والتربوية والاجتماعية التي كانت تنبثق من المسجد باعتباره مركز الإشعاع لتعانق مصالح المجتمع وهمومه.

* أستاذ مساعد بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، قسم دراسات القرآن والسنة، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، البريد الإلكتروني: ahmad7009@yahoo.com

الكلمات الأساسية: الإسلام، السودان، التصوف، الإصلاح.

مقدمة

شيخ صوفي ومرشد روحي سخر طريقته وكل ما أوتي من أسباب وإمكانيات في سبيل إصلاح مجتمعه حسب ما سمحت به الظروف، فكانت حلقُ الذكر ومجالسُ المذاكرة والتعليم ودروس الإرشاد وسائل لأداء رسالته الإصلاحية، كما كان تلاميذه ومريدوه من كل أنحاء السودان حملةً لتلك الرسالة في حلهم وترحالهم، وكذلك كان الشعرُ الذي برع الشيخ في بعض فنونه وسيلةً مهمّةً لبث تعاليمه وإرشاداته.بما اشتهر له من قصائد عديدة انتشرت بين أهل السودان فأنشدها وتغنى بها الكثير من الناس المتعلم منهم وغير المتعلم. ذلكم هو الشيخ عبد الباقي بن الحاج عمر بن أحمد بن محمد الهارب، المشهور بالمكاشفي، مؤسس الطريقة المكاشفية ومرسي قواعدها وواضع أذكارها وأورادها، ومبين آدابها وتعاليمها، الذي نحاول في هذا المقال إلقاء بعض الأضواء على بعض الجوانب من حياته وأعماله، مع التركيز على إبراز الأبعاد والآثار الإصلاحية فيها. ولابد قبل ذلك من التعريف بهذا الشيخ وإلقاء الضوء على أطوار حياته وعلى الظروف التي عاش فيها، خاصة وأنه ليست هناك دراسات كثيرة عنه.

الشيخ المكاشفي: حياته وعصره

هو – كما سبق أن ذكرنا – الشيخ عبد الباقي الحاج عمر أحمد (المعروف بالمكاشفي) محمد الهارب. ولد بقرية ود شنبلي – إحدى القرى المحيطة بمدينة سنار في السودان – في الرابع من شهر رجب سنه 1284هـ، الموافق 1865م. وإذ توفي والده وهو بعد في سن الطفولة، فقد تولى أخوه الأكبر الشيخ أحمد الحاج عمر كفالته ورعايته، فنشأ ببلدة المكاشفي التي أسسها جده أحمد المكاشفي في بيت علم وصلاح، ونسب إليها.

وكما هو الشأن فى ذلك الزمان، بدأ المكاشفي تعليمه بحفظ القرآن الكريم، فتلقاه على جماعة من الحفظة منهم أخوه الشيخ أحمد بن الحاج عمر، والفكي محمد علي ود أبو النعمة، والفكي يوسف ود عبيد، وكان يحفظ القرآن عن ظهر قلب مع كمال

التجويد. ودرس التوحيد والفقه والحديث والسيرة على جماعة من العلماء، منهم الفكي قسم الله، والفكي عمر، والفكي إبراهيم بقادى والشيخ محمد البدوى شيخ الإسلام بالسودان في ذلك العهد،وكان معظم تعليمه على يد هؤلاء الأعلام بأرض الجزيرة. كان الشيخ المكاشفي يحفظ متن كتاب "الرسالة" في الفقه والعقائد لابن أبي زيد القيروانى — المعروف بمالك الصغير – عن ظهر قلب، ومختصر الشيخ خليل بن إسحاق المالكي، كما كان يحفظ موطأ الإمام مالك بن أنس. واجتهد الشيخ اجتهادًا كبيرًا في تحصيل العلوم والمعارف، فدرس الطب والتاريخ والجغرافيا وغيرها من العلوم التي كانت متاحة في بيئته، كما فتح الله عليه في معارف القوم من العلوم الوهبية والمعارف اللدنية. وكان كلما سئل عن سر ما حصل من العلوم والمعارف وعن كيفية اكتسابه إياها يجيب بقراءة قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 282) [1].

كان الشيخ المكاشفي متعبّداً بتلاوة القرآن العظيم، مداومًا على الذكر والتهليل والتسبيح والصلاة على النبي ﷺ، متفكراً في ملكوت الله، فهيأه ذلك لسلوك الطريقة القادرية التي انخرط فيها على يدي الشيخ عبد الباقي الأبيض المعروف بأبي الشول – حفيد الشيخ عبد الباقي النيل[2] – وذلك سنة 1311هـ، وكان له من العمر آنذاك سبعة وعشرون عاما[3].

سلك الشيخ المكاشفي نهج كثير من العلماء المسلمين عبر التاريخ في شأن العلم

---

[1] انظر: قاسم، عون الشريف، **موسوعة القبائل والأنساب في السودان وأشهر أسماء الأعلام والأماكن**، (الخرطوم: شركة أفروقراف للطباعة والنشر، ط1، 1996م)، ج6، ص2365-2367؛ ود الإحيمر، محمد علي، **كتاب النمارق المصفوفة** (الخرطوم بحري: مكتبة الإصلاح، دون تاريخ)، ص72 (وهذا الكتاب عبارة عن شرح للشيخ محمد بن علي بن الشيخ البشير المشهور بود الإحيمر على "أرجوزة التوحيد" وعلى "الجنائن المغروسة على حياض السنة المحروسة" للشيخ عبد الباقي المكاشفي، وسيأتي مزيد كلام عليهما فيما بعد).

[2] هو عبد الباقي بن الإمام بن عبد الباقي حفيد الشيخ عبد الباقي النيل، والنيل ولد بالجوير فى أطراف البطانة، توفي أبوه وهو صغير، فكفله جده الشيخ محمد الأغر، ووالدته شاية بنت محمد من قبيلة الشكرية. انتقل الى قرية أم قرقور بالجزيرة، وأنشأ مسجدًا وجلس لتعليم الناس. بلغ الشيخ عبد الباقي النيل من العمر مائة وخمسين عامًا، ومات سنة 1750م. قاسم،، عون، **موسوعة القبائل والأنساب في السودان**، ج6، ص 2528.

[3] مقال عن الشيخ المكاشفي http://www.almukashfi.net/ratip_kabeir.php، نظر في 27-11-2007.

تعلمًا وتعليمًا، فكانت له رحلاتٌ عديدة في سبيل طلب المعرفة ونشرها، حيث كانت البداية من بلدة المكاشفي في إقليم كردفان بغرب السودان (التي تعرف الآن بالمكاشفي القديم)، لينتقل منها إلى قرية ود أبو آمنة، ومنها إلى بلدة البراقنة. ثم انتهى به المطاف في بلدة الشكينيبة[1]، التي طاب مقامه فيها وارتاحت نفسه وسكنت إليها فاستقر فيها. وهناك قام بحفر بئر وشاد مسجدًا وبنى العديد من المنازل، فقصده الناس من أماكن كثيرة، فمنهم من حط رحله عنده واستقر إلى جانبه، ومنهم من جاءه طالب علم، ومنهم من جاءه زائرًا لبعض الوقت[2].

بعد حياة مديدة حافلة بالذكر والتبتل، قضاها الشيخ المكاشفي في طلب العلم ونشره وفي الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفي تربية المريدين والطلبة على الزهد والتقى وتوجيههم وإرشادهم لأنماط السلوك القويم، لبى نداء المولى عز وجل ببلدة الشكينيبة في يوم السبت بعد صلاة العشاء من ليلة العاشر من ذي الحجة في سنة 1379هـ الموافق للثالث من يونيو سنة 1960م، عن عمر يناهز الستة والتسعين عامًا وفقًا للتقويم الهجري[3].

لقد امتد العمر بالشيخ المكاشفي – كما رأينا – بين عامي 1865 و1960م، وبذلك يكون قد عاصر الحكم الثنائي التركي–المصرى للسودان (1821-1881م) فتىً يافعاً، وشهد حقبة الثورة المهدية وقيام دولتها وأفولها (1881-1898م) شابًّا راشدًا،

---

[1] مقال عن الشيخ المكاشفي http://www.almukashfi.net/ratip_kabeir.php. نظر في 27-11-2007.
والشكينيبة هى القرية التى عاش فيها الشيخ المكاشفي بقية حياته حتى وافته المنية، وصارت مركزًا للطريقة التي أسسها، وهى من قري ولاية الجزيرة تقع غرب مدينة المناقل، وبها مسجده ومدارس القرآن التي ما زالت تزدحم بالطلاب حتى الآن. تبعد حوالي ثمانية كيلومتر جنوبي مدينة المناقل، وسكانها ينتمون إلى قبائل مختلفة وأكثرهم من قبائل الحسانية والحسنات والكواهلة والنوبة. ومن أهم مرافق هذه القرية المسيد أو المسجد والحفير وحفرة عميقة وواسعة تعمل لغرض تجميع ماء المطر للري والشرب والطهارة وللبهائم (وكلاهما من عمل الشيخ عبد الباقي المكاشفي وخواص طلبته ومريديه) والسوق. انظر دالي:
Daly, M. W., *Almajdubiyya and Almikashfiyya: Two Sufi Tariqas in the Sudan* (Khartoum: University of Khartoum, Graduate College Publications, No. 13, 1985), pp. 102-103.

[2] مقال عن الشيخ المكاشفي http://www.islamic-sufism.com/archive.php، نظر في 17-11-2007.

[3] المرجع نفسه.

كما عاصر عهد الحكم الإنكليزي للسودان (1898-1956م) كله كهلاً وشيخًا، ليشهد السنوات القليلة الأولى من استقلال السودان (1956-1960م)[1].

وقد شهد السودان في هذه الحقبة الطويلة من الزمن أطوارًا وأصنافًا من التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي، الأمر الذي كانت له أثار كبيرة في حياة أهل السودان أفرادًا ومجتمعًا على المستويات المادية والمعنوية مما ليس هذا موضع التفصيل فيه. ولعل من أهم المظاهر لآثار تلك التحولات ما أصاب أوضاع التعليم العربي الإسلامي الذي لم تكن له مؤسسات عتيدة وراسخة تقوم بشأنه وتنهض به كما هو الحال في مصر والمغرب وتونس مثلاً حيث كان الأزهر والقرويين والزيتونة وفروعها منارات تنشر

---

[1] سلكت الحكومة البريطانية سياسة عدم التدخل فى شوون المواطنيين السودانيين الدينية، مظهرةً قدرًا من الاحترام للدين الإسلامي فى شمال السودان، حيث منعت التبشير المسيحي وعملت على دعم المذهب السني، وذلك بتكوين مجلس خاص للعلماء سنة 1901م. وفي مقابل ذلك ذلك أقامت ما يمكن عده "جدارًا عازلاً" بين شمال السودان وجنوبه وذلك بإصدار قانون المناطق المقفولة عام 1921م، الذي فتح الباب لحركة التبشير المسيحي في الجنوب وعمل على سد منافذ التواصل والتفاعل الثقافي والاجتماعي والسياسي بين السكان في شطري البلاد. كما ساعدت الحكومة نفسها على بناء المساجد، وشجعت على أداء شعيرة الحج، وأغرت المهاجرين من غرب أفريقيا – خاصة التكارير والفلاتة – على الإقامة بالسودان بعد أداء الحج أو قبله لمواجهة ندرة الأيدي العاملة التي حصلت بسبب نقصان عدد السكان أ يام لمهدية. وكانت الحكومة الإنجليزية ترى أن الطرق الصوفية هى السبب الرئيس لإندلاع الثورة المهدية، لذلك عملت على إضعاف الطرق الصوفية، فرفضت الاعتراف بها، ومنعت زعماءها من بناء المساجد الخاصة والزوايا والقباب. أما طائفة الأنصار فقد اعتبرتهم الحكومة البريطانية منذ احتلال السودان وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عدوها الرئيس، وعملت على التخلص من زعمائها وقيادتها الروحية، وسجنت كثيرًا من أمراء المهدية. ولكن لم تنجح تلك الإجراءات فى إضعاف الطرق الصوفية، بل إن نفوذها ازداد على مر السنين حتى إن المسؤولين الإنجليز قد اضطروا عند اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى التودد إلى زعماء الطرق الصوفية لكسب تأييد المسلمين السودانيين ضد دعوة الإمبراطور العثماني وخليفة المسلمين الذى دخل الحرب إلى جانب ألمانيا داعيًا إلى الجهاد ضد بريطانيا وحلفائها. انظر إبراهيم، حسن أحمد، **تاريخ السودان الحديث 1821-1956م** (الخرطوم: دار النشر التربوي، ط5، 1986م)، ص109-110.

وانظر كذلك كرار، علي صالح، "الطرق الصوفية في السودان: منظور تأريخي"، مقال منشور على الموقع الرسمي لمركز التنوير المعرفي بالخرطوم (http://tanweer.sd/arabic/index.php).

نور العلم وتزيح ظلمات الجهل. ولذلك تفشى الجهل بتعاليم الإسلام في أوساط كثير من أهل السودان، فنهض الشيخ المكاشفي لرفع سدوفه بكل ما أتيح له من إمكانيات، وكان الشعر إحدى أهم الوسائل التي تذرع بها في سبيل ذلك، وهو ما سنحاول إبرازه فيما يأتي من هذا المقال، بعد الوقوف على ما تركه من مصنفات.

آثار الشيخ المكاشفي ومؤلفاته

بين يدي الحديث عن آثار الشيخ المكاشفي ومؤلفاته، لا بد من الإشارة إلى أنها حتى الآن لم تنشر نشرًا علميًّا حسب ما تقتضيه أصول المنهج العلمي في تحقيق النصوص بما في ذلك مراعاة سياقها التاريخي وتتابعها الزمني، ذلك أن ما استطعنا الوقوف عليه منها جرى نشره بصورة فردية – إن لم نقل عشوائية – من بعض ذريته والمنتمين إلى طريقته غايتها توفيرها للمريدين وخاصة على الموقع الإلكتروني الذي يحمل اسم "الطريقة المكاشفية"[1]، وهي بسبب ذلك مفرقة ولا نكاد نعثر لها على ناشر معلوم، باستثناء ما قام به فضل السيد عوض الله[2]. ولذلك فإن ما سنعرضه هنا إنما هو محاولة أولية لإحصاء ما استطعنا الحصول عليه في صور مختلفة، عسى أن يكون في ذلك حافز لمن يتوفر على تحقيقها تحقيقًا علميًّا دقيقا.

ولا بد كذلك من الإشارة إلى أنه ليست هناك أية دراسة علمية باللغة العربية تتناول حياة الشيخ المكاشفي أو أعماله وآثاره لا بصورة كلية أو جزئية بالتركيز على هذا الجانب أو ذاك منها، إلا ما جاء من تعريف قصير به في "موسوعة القبائل والأنساب في السودان وأشهر أسماء الأعلام والأماكن" للدكتور عون الشريف قاسم عليه رحمة الله. أما في اللغة الإنجليزية، فيمكن الإشارة إلى ما كتبه الكاتب الأمريكي مارتن ويليم دالي (المتخصص في شؤون السودان ومصر) عن طريقتي المجذوبية والمكاشفية، وهو عبارة عن بحث صغير عرض

---

[1] http://almokashfi.net/index.php

[2] عو ض الله، فضل السيد، **نفحات من أنفاس الشيخ المكاشفي** (الخرطوم: دار الطباعة جامعة الخرطوم، د.ت) ص55.

فيه المؤلف بصورة سريعة لتاريخ الطريقتين ومدى انتشارهما ورموزهما وتعاليهما[1].

ألَّف الشيخ عبد الباقي المكاشفي في علوم التوحيد، والفقه، والتصوف نظماً ونثراً، كما نظم قصائد في الحث على حب الله تعالى وطاعته وحب رسوله ﷺ واتباع سنته، وكذلك نظم عدة قصائد في مدح المصطفى عليه السلام وذكر خصاله وشمائله. وفيما يأتي استعراض سريع لما أمكننا الوقوف عليه من آثاره في مختلف المجالات المذكورة. فله في العقيدة والتوحيد منظومة "تعالى الرب"[2]، وهي مكتوبة بلغة تمزج بين الفصحى والعامية، ذكر فيها الناظمُ صفاتِ الله تعالى وما يجوز في حقه وما يمتنع على نهج الإمام الأشعري وتحدث عن قدرته عز وجل وحكمته، كما تكلم فيها على القضاء والقدر، ورد على بعض الفرق من غير المسلمين (كالدهرية واليهود والنصارى) ومن المسلمين (كالمعتزلة)، كما تعرض لذكر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام. وقد افتتح الشيخ هذه المنظومة بقوله:

تَعَالَى الـــرَّبُّ عَنْ جيهَاتٍ وبُعْدٍ وَقُرْبُ
لاَلُ مَكَانْ[3]

وختمها بقوله:

صَـــلَـــوَاتُ الْجَـــمَّـــهْ عَلَى الْمُـــخْتَارِ خَيْرِ الأُمَّـــه
كَـــذَا الأَئِـــمَّهْ وَالتَّابِعِينْ ثُـــمَّ بِهَا نَنْجَا مِنْ كُلِّ غُمَّه[4]

وفي الباب نفسه نظم الشيخ أرجوزةً في التوحيد جاءت كلها بالعربية الفصحى واشتملت على تسعة وستين بيتًا، وهي تمثل الجزء الأول من عمل شامل أكمله

---

[1] Daly, M. W., *Almajdubiyya and Almikashfiyya: Two Sufi Tariqas in the Sudan* (Khartoum: University of Khartoum, Graduate College Publications, No. 13, 1985).

[2] تشتمل هذه المنظومة على مائة واثني عشرة بيتًا، كتب عليها الشيخ محمد علي البشير المعروف بود الإحيمر شرحًا سماه "التبيين المفيد في شرح عقيدة التوحيد"، وقد نشر هذا الشرح بالسودان ضمن مجموع بدون عنوان ولا ذكر لاسم الناشر ولا تاريخ النشر، كما نشرت المنظومة منفصلة عن الشرح المذكور ضمن مجموع آخر (بدون عنوان كذلك) بعناية الجيلي عبد الباقي نجل الشيخ المكاشفي.

[3] ود الإحيمر، **التبيين المفيد في شرح عقيدة التوحيد**، ص9.

[4] المصدر نفسه، ص151-153.

المصنف بآخر في الفقه عنونه بـــ"الجنائن المغروسة على حياض السنة المحروسة"[1]. وقد جاء في مطلع هذه الأرجوزة – في البيتين الثاني والثالث بعد الحمد – قوله:

وَبَعْـــدُ فَـــهَـــذِهِ الأُرْجُـــوزَةُ أَعْرِفْهَا لِكَـــيْ تُنِيلَ الْفَوْزَهْ

لأَنَّهَـــا فِي مَعْنَى عَقَائِدِ التَّوْحِيدِ تَنْجُ بِهَا يَوْمَ الْحَرِّ الشَّدِيدِ[2]

وقد ذكر الشيخ أنه نظم هذه الأرجوزة سنة 1335 للهجرة حيث قال:

بِعَـــــامِ غَـــــشْلَهْ أَرَّخْـــتُهَا بِـــحَمْدِ اللهِ قَـــدْ نَسَخْتُهَا[3]

أما الفقه فقد خصص له الشيخ المكاشفي الجزء الثاني من الأرجوزة السابق ذكرها، وهو يشتمل على ست مائة وسبعة وثمانين بيتًا عرض فيها ما يحتاج إليه المسلم من معرفة الأحكام الخاصة بمسائل الطهارة والصلاة والجنائز والحج والزكاة على مذهب الإمام مالك، وهو في حقيقته نظم لما احتوت عليه مقدمة الشيخ عبد الباري العشماوي المعروفة بالعشماوية وشرحها للشيخ أحمد بن تركي بن أحمد الموسوم "الجواهر الزكية في حل ألفاظ العشماوية" وحاشية الشيخ يوسف الصفتي عليه المعروف بـــ"حاشية سنية وتحقيقات بهية"، وذلك ما ذكره الناظم في البيتين الرابع والخامس من الأرجوزة حيث قال:

وَبَعْـــدُ فَهَاكَ نَظْـــمًا حَاوِي لِمَعْنَى مُقَـــدِّمَة الْـــعَشْـــمَاوِي

كَذَا صِحَاحُ الْجَوَاهِرِ شَرْحُهَا وَمَا ارْتَضَاهُ الصَّفْتِي يَا مَنْ بَصَّهَا[4]

ثم ختم الشيخ الأرجوزة بالدعاء لقارئها وناسخها والصلاة على النبي ﷺ وصحابته والتابعين وتابعيهم.[5]

---

[1] وقد وضع الشيخ محمد علي البشير المعروف بود الإحيمر المذكور سابقًا شرحًا على هذه الأرجوزة بقسميها (في العقيدة والفقه) سماه "النمارق المصفوفة"، ونشر هو الآخر بدون ذكر لاسم الناشر ولا تاريخ النشر.

[2] ود الإحيمر، **النمارق المصفوفة على الجنائن المغروسة على حياض السنة المحروسة**، ج1، ص8.

[3] وذلك بحساب أبجد هوز إلخ، حيث الغين ألف، والشين ثلاثمائة، واللام ثلاثين، والهاء خمس. المصدر نفسه، ص54.

[4] المصدر نفسه، ص77.

[5] المصدر نفسه، ص299.

أما في التصوف فله مجموعة من تسع نصائح – في أربعة عشر صفحة – موجهة إلى المريدين والمشايخ والمقدمين في الطريقة، تتناول مسائل في إخلاص الاعتقاد وأداء الفرائض وتهذيب السلوك وتزكية النفس بالذكر، والإرشاد إلى حسن المعاملة والإحسان إلى الآخرين، والتحذير من غواية الشيطان والوقوع في حبائله، والدعوة إلى القناعة والاكتفاء بالقليل من متاع الحياة الدنيا والحث على الزهد في مغرياتها، والدلالة على الطريق الموصلة إلى نيل رضوان الله عز وجل.[1]

وله في الباب نفسه راتب في الذكر والتسبيح والدعاء مأخوذ أكثره من القرآن الكريم والسنة النبوية، كما يشتمل على بيان لصلاة التسابيح التي قيل إن الرسول ﷺ علمها العباسَ بن عبد المطلب، وقد خُتم هذا الراتب بدعاء من إنشاء الشيخ وضعه على حسب حروف الهجاء.[2] وله كذلك راتب آخر في التوسل إلى الله سبحانه بعظمته وجلاله وبالملائكة والأنبياء والأولياء الصالحين من الصحابة ومن جاء بعدهم بما ذلك بعض شيوخه ومعاصريه.[3] كما له "الراتب الكبير في التوسلات" الذي ذكر فيه عدداً كبيراً من الأولياء والصالحين، وهذا الراتب معروف عند أهل التصوف بالسلسلة الذهبية ومطلعه:

اللهُ يا اللهُ يا اللهُ يا اللهُ يَا نَافِي لِلشَّرِيكِ وَالأَشْبَاه[4]

أما في المديح النبوي، فقد نظم الشيخ المكاشفي قصيدة طويلة من أكثر من ستمائة وخمسين بيتًا قام فيها بتسبيع قصيدة البردة للإمام شرف الدين البوصيري

---

[1] جمع هذه النصائح حفيده إهاب موسي الجيلي المكاشفي وعنونها "الأساس في نصائح مدير الكأس" ونشرها في أربعة عشر صفحة.

[2] انظر: المكاشفي، عبد الباقي، **راتب المرشد**، رواه أحمد المدني محمد الحسن ونشره محمد أحمد يوسف ضمن مجموع يحتوي على أرجوزة "توحيد الرب" (د.ت)، ص7-14.

[3] روى هذا التوسل بعضُ تلاميذ الشيخ واسمه محمد نور الحفير.

[4] عو ض الله، **نفحات من أنفاس الشيخ المكاشفي**، ص55.

(1295/695-1213/608) سماها "شموس الأنوار فى مدح النبي المختار"[1]، ومطلعها:

اللهُ يَــدْرِي فُؤَادِي فِيكَ ذُو هَــمَمِ فِي عِشْقِهِ وَحَشَاشِي زَائِدُ بِالنَّهم
عَــلَى نَبِــيٍّ عَظِيمٍ نَافِــي التُّــهَمِ كَفَفْتُ مَاءَ عُيُونِ الْمَاءِ سَائِلِ مهم
فِي قِــبَــابِ طَــيْــبَــةَ مَعَ الْحَرَمِ
أَمِنْ تَذَكُّــرِ جِيرَانٍ بِذِى سَلَمٍ مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِــنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ[2]

وله فيه كذلك قصيدة من أكثر من مائة وأربعين بيتًا سماها "البراق سعادة الدارين فى مدح شافع الثقلين" وافتتحها بقوله:

بِبَاءِ الْبَهَاءِ وَسِينِ السَّنَاءِ الْمُعَظَّمِ وَمِيمِ الْمَلِكِ الأَقْدَسِ الْمُتَرَحِّمِ
وَأَلِفِ الأَلِفِ وَلاَمِ الأَلِفِ الْمُعَمِّمِ وَلاَمٍ لإِمْــدَادٍ وَهَاءٍ مُفَخَّــمِ
صَلاَتُكَ عَلَى خَيْرِ الْوُجُودِ الْمُنَبَّإِ[3]

وختمها متشفعًا بالرسول ﷺ الذي آتاه الله الشفاعة في المؤمنين يوم القيامة، فقال:

جَنَيْتُ مُوبِقَاتٍ كَالْجِبَالِ فِي ثِقْلِهَا وَلَيْسَ لِي بَحْرٌ أُؤَمِّــلُ غَسْلَهَا
سِوَى جَاهِ مَنْ بِالْفَضْلِ قَالَ أَنَا لَهَا وَيَسْجُدُ عِنْدَ الْعَرْشِ يَفْتَحُ قُفْلَهَا
وَيَشْمَلُ بِهَا ذَا الْبِرِّ وَمَنْ كَانَ عَاصِيَا[4]

---

[1] **شموس الأنوار في مدح النبي المختار**، نشرها نجله الجيلي عبد الباقي المكاشفي ضمن مجموع يحتوي على أرجوزة "تعالى الرب" وقصيدة "البراق" التي سيأتي الكلام عليها (دون ذكر لتاريخ النشر ولا مكانه).

[2] المصدر نفسه، ص45.

[3] **البراق سعادة الدارين في مدح شافع الثقلين**، نشرها نجله الجيلي عبد الباقي المكاشفي ضمن مجموع يحتوي على أرجوزة "تعالى الرب" وقصيدة "شموس الأنوار" السابق ذكرها (دون ذكر لتاريخ النشر ولا مكانه)، ص25.

[4] المصدر نفسه، ص39. هذا ويشير الشيخ في هذه الأبيات عن شفاعة النبي ﷺ للمؤمنين يوم القيامة إلى ما جاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك وأبي هريرة وحذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد، وتدنو الشمس من رؤوس الخلائق. فيبلغ الناس من الكرب والغم ما لا يطيقون، فيهتمون لذلك، فيُلهمون فيقولون: لو استشفعنا إلَى ربنا حتى يريحنا من مكاننا، ثم ذكر أنهم يأتون آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى (فكلٌّ يعتذر)، وأن عيسى يقول: ائتوا محمدًا عبدًا قد غُفرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال: فيأتوني فأستأذن على ربّي فيأذن لي فإذا رأيته وقعت ساجدًا فيدعني ما شاء الله ثم يقول: يا محمد ارفع رأسك، قُلْ

هذا وهناك قصائد أخرى منسوبة للشيخ المكاشفي ظهر بعضُها في بعض المواقع على الشبكة العنكبوتية لم نذكرها في هذا العرض لعدم التأكد من نسبتها إليه.

إسهام الشيخ المكاشفي فى الإصلاح والتعليم

الشعر التعليمي عند الشيخ المكاشفي:

اعتمد الشيخ المكاشفي من فنون القول لبث تعاليمه ما يعرف بالشعر التعليمي، وهو نوعٌ من النظم العلمي الذي يخلو من الصور الفنية والأخيلة الشعرية والإثارات العاطفية، غرضه إيراد الأفكار والمعلومات والحقائق العلمية المجردة بصورة مباشرة وفي أسلوب يسير بحيث يسهل تلقيها وحفظها على المتعلم. والمنظومات في هذا النوع من الشعر عادة ما تسلك مسلكين: أحدهما إيراد مسائل علم معين وقواعده، كمُلحة الإعراب للحريري[1] وألفية ابن مالك في النحو العربي[2]. والآخر ما يتناول متنًا معينًا في علم من العلوم ويعبر عما جاء فيه من معلومات ومسائل في قالب شعري، ومن ذلك

تُسمع، وسَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأرفع رأسي فأحمد ربّي بتحميد يعلمنيه ربّي، ثم أشفع فيحد لي حدًّا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود فأقع ساجدا». البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري** (الرياض: بيت الأفكار الدولية، بدون تاريخ)، "كتاب التفسير"، الحديث4476، ص760؛ "كتاب الرقاق"، الحديث6565، ص1135-1136؛ "كتاب التوحيد"، الحديث7410، ص1274-1275 والحديث7510، ص1293-1294؛ النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، **صحيح مسلم** (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1421/2001)، "كتاب الإيمان"، الحديث193، ص94-95؛ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، **سنن الترمذي** أو **الجامع الصحيح** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1427/2006)، "أبواب صفة القيامة"، الحديث 2434، ص578-579.

[1] يقول الناظم فى أولها:

يا سائلى عـــنِ الكلام المنتظمِ حدًّا ونوعًا وإلَى كم ينقسمِ
اسْمَعْ هُديتَ الرشدَ ما أقُـــول وافْهمْهُ فَهْمَ مَـــنْ لهُ معقولُ

جامع متون العلوم الشرعية، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن سعد (القاهرة: دار ابن الهيثم، ط1، 2005م)، ص396.

[2] المرجع نفسه، ص416.

"تسهيل الطرقات في نظم الورقات" ليحيى بن موسى العمريطي في أصول الفقه[1]، و"الدرة البهية في نظم الآجرومية" فى النحو[2].

وتأتي "أرجوزةُ التوحيد" في مقدمة مؤلفات الشيخ، وعدد أبياتها - كما رأينا – ستة وستون بيتًا بدأها بقوله:

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ وَالسَّــلاَمِ وَالصَّلاَةِ عَــلَى نَبِيٍّ جَــاءَ بِالْخَــيْرَاتِ
وَبَعْــدُ فَــهَــذِهِ الأُرْجُــــوزَةُ أَعْــرِفْــهَا لِكَــيْ تُنيلَ الْفَوْزَهْ
لأَنَّهَا فِي مَعْنَى عَقَــائِدِ التَّــوْحِيدِ تَنْــجُ بِهَا يَوْمَ الْحَــرِّ الشَّدِيــدِ
وَتَخْــــرُجَنْ مِنْ رِبْــقَةِ التَّقْــلِيدِ وَتَــسْكُــنَ الْجــِنَانَ بِالتَّأْبِيدِ[3]

في هذه الأرجوزة شرحٌ لمعنى عقيدة التوحيد، حيث بدأ المصنف بذكر استغناء الله تعالى وقيامه بذاته وتنزهه عن المشابهات وصفاته النفسية ومخالفته الحوادث، وفي ذلك يقول:

وَهِيَ لاَ إِلَهَ لِلإِسْتِغْنَا يَا فَــطِــنْ أَمَّا الْوُجُــودِ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ لَكَ أَبِنْ
الْقِدَمُ وَالْبَقَاءُ وَالْمُخَالَفَةُ لِلْحَوَادِثِ قِيَامُهُ بِنَفْسِهِ فَهَذِهِ أَرْبَعَةٌ يَا حَادِثُ[4]

ثم شرع بعد ذلك في بيان هذه الصفات، وأنه يسير في ذلك على نهج الإمام أبي الحسن الأشعري فقال:

أَمَّا الْوُجُــودُ فَضِدُّهُ لِلأَشْعَرِي الْعَدَمْ الْقِدَمُ فَالْحُدُوثُ ضِدُّهُ يَا ذَا الْفَهَمْ[1]

---

[1] قال الناظم بعد أن ذكر أهمية أصول الفقه وابتداء تدوينه على يدي الإمام الشافعي:

وَخَيْرُ كُتُبِهِ الصِّــغَارِ مَا سُمِّيَ بِــ"الْوَرَقَاتِ" لِلإِمَامِ الْحَرَمِي
وَقَــــدْ سُئِلْتُ مُدَّةً فِي نَظْمِهِ مُسَهِّــلاً لِحِفْظِهِ وَفَهْــــمِهِ

الشمراني، عبد الله بن محمد، **الجامع للمتون العلمية** (الرياض: مدار الوطن، ط2، 2004/1425)، ص511-524.

[2] **جامع متون العلوم الشرعية**، ص383-393.

[3] ود الإحيمر، **النمارق المصفوفة**، ج1، ص6-8.

[4] المصدر نفسه، ص10.

وبعد أن شرح معنى سائر صفات المعاني والصفات المعنوية لله تعالى، وبين ما يستحيل في حقه سبحانه، انتقل الشيخ المكاشفي للرد على بعض أصحاب المقالات كالقول بوجوب الأصلح عليه عز وجل وكالقول بالطبائع، كما تكلم على حدوث العالم،[2] ليعرج على الحديث عن الأنبياء والرسل وما يجب في حقهم من صفات كالصدق والأمانة والعصمة، وما يستحيل وما يجوز عليهم، منتهيًّا إلى ذكر أن الأعراض البشرية التي لا تقدح في مكانتهم ومهمتهم التبليغية جائزة فى حقهم، حيث قال:

يَجِبُ اعْتِقَادُ الأَعْرَاضِ الْبَشَرِيَّةِ الْوَاجِبَاتِ فِي حَقِّ الرُّسُلِ الْكُمَّلِ الصِّفَاتِ
وَيَجُوزُ فِي حَقِّهِمُ الأَعْرَاضُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِى لاَ تُؤَدِّي إِلَى نَقْصٍ فِي مَرَاتِبِهِمْ الْعَلِيَّهْ[3]

وهكذا يمضي الشيخ في الكلام على سائر مسائل العقيدة، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويفصل القول في متعلقات ذلك كله، ليخلص إلى تعداد جملة المسائل التي يجب أن يتشربها قلب المؤمن ليصدق إيمانه وتصفو عقيدته، إذ يقول:

تَحْتَ الاسْتِغْنَا أَرْبَعَةُ عَشَرَ وَاجِبَهْ وَأَرْبَعَةُ عَشَرَ ضِدُّهَا مُهَذَّبَهْ
أَمَّا الافْتِقَارُ فَتَحْتَهُ إِحْدَى عَشَرَ وَاجِبَةٌ وَمُسْتَحِيلَةٌ كَذَا إِحْدَى عَشَرَ[4]

ويذكر الشيخ أن هذه العقائد هي ما جاء به محمد ﷺ، وأن جوهرها العبودية الله والإخلاص له وحده فلا معبود سواه[5]، ثم يوصي قارئه بالتمسك بها وبمداومة ذكر الله كي ينال النجاة والرضوان:

فَبِالنَّوَاجِذِ أَخِي عُضَّ عَلَيْهَا وَاحْذَرْ إِيَّاكَ الرَّفْضَ
تُنْجِيكَ يَوْمَ الْهَوْلِ مِنَ النَّارِ وَتَرْتَجِ رِضْوَانَهُ الْغَفَّارِ

---

[1] المصدر نفسه، ص11.

[2] المصدر نفسه، ص11-23.

[3] المصدر نفسه، ص24-26. هذا وقد جاء في النشرة التي اعتمدنا عليها لفظة "الغنية" بدل "العلية"، وهو خطأ.

[4] المصدر نفسه، ص42.

[5] المصدر نفسه، ص45.

فِي سِلْكِ أَهْلِ الْوِصَالِ حَالاً تَنْتَظِمْ وَهْيَ رُوحُ أُنْسِ كُلِّ مَنْ عَلِمْ
وَاظِبْ عَلَيْـهَا بِالغُـدُوِّ والآصَالِ تَبْلُغْ بِهَا مَـرَاتِبَ الْكَمَـالِ[1]

وإذا كانت "أرجوزة التوحيد" هذه يغلب على أسلوبها الاقتصارُ على ذكر مسائل العقيدة كما جرى تقريرها من قبل الإمام الأشعري وأعلام مدرسته دون التفات كبير إلى مقالات الآخرين، فإننا نجد الشيخ المكاشفي قد غير من هذا المسلك في قصيدة "تعالى الرب"، إذ قد اهتم بالرد على عدد من المخالفين من المسلمين وغير المسلمين، كالحشوية والقدرية والمعتزلة والوثنية والدهرية وغيرها، حيث نقرأ قوله مثلا:

صَـمَـدٌ رَدَّا عَـلَى الْوَثَنِيَّةِ الـرُّمْدَا
لاَ مَثِيـلَ لِلْفَـرْدِ طَعْنًا لِلْحَشْـوِيَّةِ وَكَيْدِ
لِلْقَـدَرِيَّةِ خَـالَفْـنَا قُدْرَةٌ لاَ عَجْزٌ وَلاَ فَنَا
عَلَى الدَّهْرِيَّةِ رَدِّينَا بِهَذِي الأَيْدِي شَدِّينَا
هَـجَوْنَا الْكَانَ اعْتَـزَلاَ مِنَ الأُمَّـةِ الْمُعْتَـزِلاَ[2]

كما يرد على مَنْ حكم بكفر فساق المسلمين وإخراجهم من الملة، حيث يقول:

نُـصَـدِّقُ أَنَّـا فُـسَّاق هَـذِهِ الأُمَّـةِ مِنَّا
خَيْـرًا بِالْقَطْعِ لاَ ظَنًّا مِنْ نَصَارَ يَهُودٍ مَجُوسٍ جِنًّا[3]

وهذه المسألة وغيرها من المسائل التي ذكرها الشيخ في الأبيات التي سردناها هنا ذات ذيول طويلة في المنازعات العقدية والكلامية بين الفرق الإسلامية من خوارج ومعتزلة وأشاعرة وماتريدية وغيرهم منذ القرن الهجري الثاني، مما ليس من غرض هذا

---

[1] المصدر نفسه، ص49-51.

[2] ود الإحيمر، **التبيين المفيد**، ص55، 57، 63 85، و97.

[3] المصدر نفسه، ص92.

المقال مناقشته أو التعليق عليه. ولكن من المناسب مع ذلك الإشارة إلى تلك النزعة التأليفية التي نلمحها عند المصنف والتي غايتها الحفاظ على جامعة المسلمين والحرص على عدم التورط في التكفير الذي من شأنه أن يحول المسلمين إلى فرق متناحرة متقاتلة لا ترى الواحدة منها في الآخرين إلا كفرة يجب القضاء عليهم. والشيخ المكاشفي إنما يسير في ذلك على طريقة الإمام الأشعري الذي تناول الاختلافات التي ظهرت بين المسلمين في كثير من مسائل الإيمان والاعتقاد بعنوان معبِّر عن منهجه الوسطي حين ألف كتابه الشهير "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين".

ولما كان الإيمان هو ما يستكن في القلب ويعرب عنه اللسان ويصدقه العمل باعتبار أن العمل وفق ما جاء به الشرع من أحكام هو ترجمان مقتضيات العقيدة في الواقع، فإن الشيخ لم يكتف بتعليم أتباعه ومريديه وغيرهم من سائر المسلمين مسائل الاعتقاد الصحيح وإبانة ما ينافيه. بل عُني عناية خاصة بتقريب ما يحتاج إليه المسلم من معرفة بأحكام الفقه التي تتعلق بالواجبات العينية لا مناص للمرء – ذكرًا كان أم أنثى – من القيام بها، جاريًا في ذلك على مُعتاد أهل السودان من فقه مذهب الإمام مالك. ولذلك اختار من متون ذلك الفقه ما كان ذا شيوع وانتشار كبير في مناطق السودان المختلفة ليصوغه نظمًا سلس العبارة، واضح المعنى، سهل الحفظ على العالم والمتعلم بل على الأمي غير المتعلم أيضا. فجاءت قصيدته "الجنائن المغروسة على حياض السنة المحروسة" مستوعبة وشارحةً لأحكام المسائل الخاصة بالطهارة والصلاة والجنائز والزكاة والحج أُصولاً وفروعًا، وأركانًا وسننًا، وآدابًا وفضائل، وقد شرحها شرحًا ضافيًا الشيخُ ود الإحيمر كما ذكرنا في المبحث السابق من هذا المقال. يقول الشيخ في وصف هذه الأرجوزة وبيان وجهتها:

وَكَمْ حَوَتْ فَوَائِدَ عَدِيدَهْ ... وَكَمْ لَهَا زَوَائِدَ مُفِيدَهْ

وَقَدْ أَتَتْ بِحَمْدِ اللهِ فَائِقَهْ ... نَفَائِسَ اللُّؤْلُؤِ وَمَعْنَى رَائِقَهْ

سَمَّيْتُهَا الْجِنَانَ الْمَغْرُوسَهْ ... عَلَى حِيَاضِ السُّنَّةِ الْمَحْرُوسَهْ

تَابِـــعًا لِنَهْـــجِ الإِمَـــامِ مَـــالِكِ قُطْبِ الأَئِمَّةِ وَاضِحِ الْمَسَالِـــكِ[1]

وبعد رحلة طويلة مع الأحكام الفقهية للمسائل والفروع التي يحتاج إليها السلم لتصحيح عمله وإصلاح شأنه فيما فرض الله عليه من شعائر العبادات المذكورة، يختم الشيخ المكاشفي أرجوزته الفقهية حامدًا ومتضرعًا ومصليًّا فيقول:

وَقَـــدْ تَمَّتْ بِحَـــمْدِ اللهِ رَبِّ أَرْجُو بِهَا الزُّلْفَى وَحُسْنَ الْقُرْبِ
أَرْجُـــو رَبَّنَا لِمَـــنْ قَـــرَأَهَـــا وَنَاسِخٍ لَهَا وَمَـــــنْ تَـــــلاَهَا
هِـــدَايَةً رِعَـــايَةً وَنِعْـــمَـــهْ طُـــولَ عُمْـــرٍ وَرِزْقًا يَعُـــمَّـــهْ
أَرْجُـــوهُ أَنْ يُحْسِنَ لَنَا الْخِتَامَ وَيُسْـــكِـــنَنَا بِجَـــنَّةِ السَّـــلاَمِ
وَصَلَّى اللهُ عَلَى النَّبِيِّ الأَمِيـــنِ والآلِ وَالصَّـــحْبِ أَجْمَـــعِينَ
وَتَابِـــعٍ مُتَّبِعٍ لِحُسْـــنِ السَّيْرِ وَعَامِلٍ ذِي اجْتِهَادٍ فِـــي الْخَيْرِ[2]

"المسيد" مؤسسة تعليمية واجتماعية للإصلاح:

لا نعرف على وجه الدقة واليقين أصلَ النشأة التاريخية لكلمة "مسيد" الشائع استخدامها في السودان إطلاقًا على المسجد، ولكن من الراجح أنها تصحيف لكلمة مسجد حيث أُبدلت الجيمُ ياء، مثلما حصل التغيير في كلمات غيرها مع المحافظة على معناها كما هو الشأن مع لفظة "فكي" التي هي تحريف لكلمة "فقيه". وهذه التسمية – التي قد تشاركها في الاستعمال في بعض الأحيان لفظة الخلوة – تدل في عرف أهل السودان على المسجد يكون تحت رعاية شيخ صوفي ويجمع بين وظائف التدريس وتعليم مبادئ القراءة والكتابة، وتعليم القرآن والفقه، والتنشئة الروحية للمريدين لسلوك الطريقة، وأداء الصلوات، والاعتكاف، بل ولإجراء عقود النكاح، وحل

[1] ود الإحيمر، **النمارق المصفوفة**، ج2، ص79-80.

[2] المصدر نفسه، ص298-299.

الخصومات التي تحدث بين الناس[1]. ومن الطبيعي والحال هذه أن معارف الشيخ وثقافته هي التي تحدد نوع المواد التي تدرس وحجمها[2].

على هدي هذا المفهوم والرؤية لوظيفة المسجد أو المسيد ومن منطلق الوعي لمهمة العالم باعتباره حاملاً لرسالة في المجتمع كان نهج الشيخ المكاشفي في تأسيس مسجده بقرية الشكينيبة، ففيه – فضلاً عن إقامة الصلوات – تعقد حلق الذكر والتبتل بقيادة الشيخ أو من ينيبه من مقدمي المريدين، وفيه أنشأ مدرسة لتحفيظ القرآن كان يستقدم لها الحفظة المتقنين لتعليم القرآن لمرتاديها من مناطق السودان المختلفة، وفيه يجري تعليم مبادئ القراءة والكتابة، وفيه يجري تدريس متون اللغة والنحو والصرف وشيء من الأدب، فضلاً عن مجالس تعليم أحكام الفقه وآداب الشريعة وتعاليم الطريقة. وبذلك تحولت قرية الشكينيبة إلى حاضرة علمية صغيرة أو مركز للوعي والإشعاع الثقافي تخرجت منه أفواج متتالية من حفظة القرآن وحملة الفقه من ذوي الشفافية الروحية العالية والأدب النفسي المتين، فحملوا رسالة الإسلام إلى الأجيال وفقهوا الناس فى أصول عقيدته وأحكام شريعته.

ولكن المسجد أو المسيد لم يكن بالنسبة للشيخ المكاشفي – بل ولكثير من مشايخ التصوف في السودان[3] – مجرد مؤسسة للعبادة والتعليم، وإنما هو ملتحم بحياة الأتباع والمريدين وغيرهم في جوانبها الخاصة والعامة، الاجتماعية والاقتصادية. ومن ذلك احتواء ما ينشب بين الأفراد من نزاع والفصل فيما يثور بينهم من خصومات فلا يضطرون إلى اللجوء إلى المحاكم بإجراءاتها الطويلة المعقدة فضلاً عما يؤدي إليه

---

[1] انظر في ذلك ابن ضيف الله، محمد النور، **الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان**، تحقيق يوسف فضل (الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر، ط 3، 1985م).

[2] المصدر نفسه، ص13 (مقدمة المحقق).

[3] انظر في هذا الشأن: كرار، "الطرق الصوفية في السودان: منظور تأريخي"، مقال مذكور.

التقاضي أمامها من إذكاء للنفرة والعداوة بينهم[1]. وكذلك الإصلاح بين القبائل التي كثيرًا ما تثور الخصومة بين بعضها وتوشك أن تتناحر وتتقاتل بسبب خلاف على مرعى أو ماء أو غيره، فيستخدم الشيخ سلطته الروحية وحكمته الاجتماعية فيترع فتيل الفتنة من بينها ويصلح ذات بينها، فينصاع له المتخاصمون[2].

وكان الشيخ المكاشفي لا يتأخر عن مساعدة من يحتاج لمساعدته إن كان يملك ذلك أو تيسير من يتولى المساعدة، كما كان لا يبخل عن بذل النصيحة وإسداء المشورة لمن يطلب نصيحته ويرغب في مشورته، سواء أكان ذلك في نكاح أو طلاق أو بناء بيت أو سفر في تجارة أو غيرها، ولا يتردد الطالبون لنصيحته في العمل بما يشير به عليهم. بل إن من الناس مَنْ يقصده للعلاج والاستشفاء، فيعالج من أمراضهم ما يتيسر له معتمدًا على ما ورد عن النبي ﷺ من نصائح وتوجيهات في التداوي وحفظ الصحة مما عرف بالطب النبوي، وينصح مَنْ لا قبل له بعلاج أدوائهم بمراجعة أهل الصنعة والاختصاص من الأطباء[3].

الاحتراف والزراعة في طريقة الشيخ

تقع قرية الشكينيبة التي التي بنى فيها الشيخ المكاشفي مسجده وأسس طريقته ورعا فيها أتباعه ومريديه قريبًا من مشروعي الجزيرة والمناقل الزراعيين (القائمين على نظام الري الآلي من مياه النيل) في منطقة يعتمد أهلها في حياتهم على الزراعة الموسمية التي تقوم بمياه المطر. وقد أنشأ مزرعة كبيرة لإنتاج المحاصيل الغذائية الموسمية كالذرة كان يقوم عليها بنفسه وبمشاركة حواريه وطلابه بذرًا ورعاية وحصدًا، عملاً على تحقيق سد حاجات أنفسهم وعدم العيش عالة على الناس، وسعيًا لمدّ يد المساعدة

---

[1] انظر دالي، مرجع سابق، ص126-127.

[2] المرجع نفسه.

[3] المرجع نفسه، ص136-137.

للمحتاجين مما يفيض على حاجتهم من نتاج تلك المزرعة. ونجد في بعض أشعار الشيخ صدى لمعاناة الناس بسبب ارتفاع سعر الذرة التي هي قوتهم الأساسي، حيث يصف تلك المعاناة ويتضرع إلى الله أن يفرج كربة الخصاصة التي أَصابت الناس، كما يدعو أهل اليسار إلى إعطاء المعوزين، فيقول:

كَرِيـــم بِالكِيلـــة لنا سَهِّلْ وارْخِي الكِـــيلة للمسكينْ
قـــمنا حـــليلة حـــلـــيلة للباجـــور رقـــادنا مليلة
مُحتاجـــين حيلـــتنا قليلة غـــدانا لفة وعشانا بـــليلة
يوم سمـــعنا غـــلاة الكتيلة أزعجنا وشكلنا شكـــيلا
يا بَرُّ يا رحيـــم وكـــــيلا يبقى قرشين ثمنها تكيـــلا
عـــــبـــادك ضـــــجـــوا من الجـــوع إليك ترجوا
يا من عيشتم وجبتو المسرى أوصيكم بإعطاء الكسرة[1]

خاتمة

سبق أن ذكرنا أن نمط الشعر الذي سار عليه الشيخ المكاشفي في نظم قصائده وأراجيزه كان هدفه الرئيس هو إيصال رسالته إلى أهل السودان كافة متعلمهم وأميِّهم، عالمهم وجاهلهم، رجالاً ونساءً، خاصة وأن البيئة التي أسس بها طريقته ونشر فيها دعوته كانت بيئة ريفية زراعية لم يكن لها من التعليم النظامي ومؤسساته نصيب يذكر. ولذلك فقد راعى في نظمه مستوى القدرة اللغوية لمخاطبيه ومتلقي قصائده حتى يتمكنوا من فهمها وإدراك مضامينها أولاً، ولكي لا يعسر عليهم حفظها واستذكارها ثانيًا، فترسخ معانيها في نفوسهم وتتشربها قلوبهم. وهذا ما يفسر مزجه المتفاوت بين الفصحى والعامية السودانية الدراجة، كما يفسر تسامحه فيما يتعلق بالأوزان الشعرية التي صاغ فيها منظوماته. والحقيقة إن هذا النهج الذي سار عليه الشيخ المكاشفي ليس بدعًا من الأمر

[1] هذه الأبيات من قصيدة "كريم بالكيلة لنا سَهِّلْ" مرفوعة على موقع الطريقة المكاشفي المذكور سابقا.

وخاصة بالنسبة لحركة الشعر العربي في السودان، وإنما هو يندرج في تيار واسع أو ظاهرة عامة رصدها الدارسون للحياة الفكرية والثقافية في هذا البلد العربي الإفريقي، حيث سلك الشعر العربي "أربعة اتجاهات رئيسية منها: اتجاه الشعر العربي الدارج، ويبدأ بدخول العرب في السودان ومعهم لهجاتهم العربية الدارجة فتغنوا بشعر البطولة"[1].

ومهما كان من أمر في هذه المسألة أو في غيرها مما يمكن أن يكون جديرًا بالنظر من قبل علماء اللغة والأدب والمهتمين بالتطور الثقافي في السودان عمومًا، فإن ما سعى إليه هذا المقال إنما هو تسليط الضوء على بعض الجوانب من العمل الإصلاحي الذي نهض به أحد أقطاب حركة التصوف في السودان، بغية إبراز ذلك التلاحم القوي بين الطريقة – أيًّا كانت – والمجتمع الذي تنشأ وتنمو فيه. ويمكننا التعبير عن ذلك بالقول إن وجود الطريقة الصوفية ينطوي دائمًا على ما يمكن أن نصفه بالقيمة المضافة، حيث إنها تعطي المجمتع على قدر ما تأخذ منه، بل أكثر مما تأخذ منه، من الناحيتين المعنوية والمادية.

ولا نجد ما نختم به هذا المقال خيرًا من إحدى وصايا الشيخ لما تشتمل عليه من معان لطيفة وبيان أخاذ للصفات التي يحتاج السالك إلى التحلي بها قدر الإمكان كي يرتقي صعدًا في مدارج الكمال الممكن للإنسان. يقول عليه رحمة الله: "ينبغي للفقير أن يكون: جوالَ الفكر، جوهريَّ الذكر، جميلَ المنازعة، قريبَ المراجعة، لا يطلب من الحق إلا الحق، ولا يتمذهب إلا بالصدق، أوسعَ الناس صدرًا، وأكثر الناس نفعًا، ضحكه تبسُّمًا، واستفهامه تعلمًا، مذكرًا للغافل ومعلمًا للجاهل، لا يؤذي مَنْ يؤذيه، ولا يخوض فيما لا يعنيه، كثيرَ العطاء، قليل الأذى، ورعًا من المحرمات، متوقفٌ عن المشتبهات، غوثًا للقريب، أبًا لليتيم، بِشره في وجهه، حُزنه في قلبه، مشغولٌ بفكره،

---

[1] عابدين، عبد المجيد، **تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث: الدين، الاجتماع، الأدب** (القاهرة: مكتبة الشبكشي، ط1، 1953م)، ص173-174.

مسرورٌ بفقره، لا يكشف سرًّا، ولا يهتك سترا، لطيف الحركة، نامي البركة، سخيًّا بالفائدة، طيب المذاق، حسن الأخلاق، لين الجانب، جوهراً سيالاً ذائب، طويل الصمت، جميل النعت، حليمًا إذا جُهل عليه، صبورًا على من أساء إليه، لا يكون عنده جحود، ولا لنار الحق خمود، لا ملولاً ولا عجولاً، يبجل الكبير، ويرحم الصغير، أمينًا على الأمانة، بعيدًا عن الخيانة، ألفه التقى، خلقه الحياء، كثير الحذر، مداوم السهر، قليل التدليل كثير التحمل، قليل بنفسه كثير بإخوانه... لا يشمت بمصيبة، ولا يذكر أحدًا بغيبة، وقورًا لطيفًا صبورا، قليل الكلام كثير الصلوات والصيام، سابق الجنان، يحتفل بالضيفان، ويطعم بما كان لمن كان، تأمن بوائقه الجيران... لا حسودًا ولا كنودا. له لسانٌ مصون، وقوله موزون، وقلبه محزون، وفكره يتجولُ فيما كان وما يكون"[1].

References: المراجع:

'Abidīn, 'Abdul Majīd, *Tārīkh al-Thaqāfah al-'Arabiyyah fī al-Sūdān mundhu Nash'atihā Ilā al-'Aṣr al-Ḥadīth: al-Dīn, al-Ijtimā', al-Adab* (Cairo: Maktabat al-Shabakshī, 1st edition, 1953).

'Awad Allāh, Faḍl al-Sayyid, *Nafaḥāt min Anfās al-Shaikh al-Mukāshifī* (Khartoum: Dār al-Tibaah, Khartoum University, no date).

Al-Bukhārī, Muḥammad bin Ismā'īl, *al-Jāmi' al-Ṣaḥīḥ (Ṣaḥīḥ al- Bukhārī)* (Riyadh: Bayt al-Afkār al-Dawliyyah, no date).

Al-Iḥimir, Muḥammad 'Alī, *Kitāb al-Namāriq al-Maṣfūfah* (Khartoum: Maktabat al-Iṣlāḥ, no date).

al-Mukāshifī, 'Abd al-Bāqī, *Al-Asās fī Naṣā'iḥ Mudīr al-Ka's* (Khartoum: Maktabat al-Jāmi'ah, no date).

al-Mukāshifī, 'Abd al-Bāqī, *al-Burāq Sa'ādat al- Dārayn fī Madḥ Shāfi' al-Thaqalayn* (no place, no date).

al-Mukāshifī, 'Abd al-Bāqī, *Rātib al-Murīd,* reported by Ahmad al-Madani al-Hasan (no date).

al-Mukāshifī, 'Abd al-Bāqī, *Shumūs al-Anwār fī Madḥi al-Nabī al-Mukhtār* (no place, no date).

[1] المكاشفي، **الأساس فى نصائح مدير الكأس** (الخرطوم: مطبعة الجامعة، د.ت)، ص16.

Al-Naysābūrī, Muslim bin al-Ḥajjāj al-Qushayrī, *Ṣaḥīḥ Muslim* (Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1st edition, 1421/2001).

Al-Shamrānī, 'Abdullah bin Muhammad, *al-Jāmi' li al-Mutūn al-'Ilmiyyah* (Riyadh: Madār al-Waṭan, 2nd edition, 1425/2004).

Al-Tirmidhī, Muḥammad bin 'Īsā, *Sunan al- Tirmidhī,* or *al-Jāmi' al-Ṣaḥīḥ* (Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1427/2006).

Daly, M. W., *Almajdubiyya and Almikashfiyya: Two Sufi Tariqas in the Sudan* (Khartoum: University of Khartoum, Graduate College Publications, No. 13, 1985).

Ibn Ḍayf, Muḥammad Nūr, *al-Tabaqāt fī Khuṣūṣ al-Awliyā' wa al-Ṣāliḥīn wa al-'Ulamā' wa al-Shu'arā' fī al-Sūdan,* ed. Yūsuf Faḍl (Khartoum: Dār Jāmi'at al-Khartoum li al-Nashr, 3rd edition, 1985).

Ibn Sa'd, Abū 'Abd al-Raḥmān, Jami al-Mutun al-Shariyyah (Cairo: Dār Ibnu al-Haytham, 1st edition, 2005).

Ibrahim, Hassan Ahmad, *Tārikh al-Sūdan al-Ḥadīth 1821-1956* (Khartoum: Dār al-Nashr al-Tarbawī, 5th edition, 1986).

Qāsim, 'Awn al-Sharīf, *Mawsū'at al-Qabā'il wa al-Ansāb fī al-Sūdān wa Ashharu Asmā' al-A'lām wa al-Amākin* (Khartoum: Sharikat Afrugraf lī al-Ṭibā'ah wa al-Nashr, 1st edition, 1996).

http://almokashfi.net/index.php

http://tanweer.sd/arabic/index.php

http://www.almukashfi.net/ratip_kabeir.php (27-11-2007).

http://www.almukashfi.net/ratip_kabeir.php (27-11-2007)

http://www.islamic-sufism.com/archive.php (1711-2007).